حازم القرطاجني وكتابه منهاج البلغاء في دراسات المستشرقين الألمان المعاصرين

الدكتور محمود درابسة

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب، جامعة اليرموك ، الأردن

تاريخ استلام البحث ١٩٩٢/٣/٣ تاريخ قبوله للنشر ١٩٩٣/٧/١٢

ABSTRACT

Hāzim al - Qartājannī and his book
"minhāj al - buiagā"
in the studies of the contemporary German Orientalists.

This article takes into consideration the stnand of the con temporary German orientalists towards the critical issues to which Hazim al - Qartajanni (died ; 684 A. H., 1285 A. C.) gave concern in his so-called book ; "minhaj al - bulagā".

These issues are :

1. Hazim and the Greek influence
2. imitation and play acting, and
3. conceivable fabrication and impossible fabrication

The German orientalists concentrated on the first issue, i. e the Greek sources that shared in building the critical credit of Hazim, and they paid a special attention to his beeing directly, influenced by the work of Ibn Sīnā : aš - šifā, which is believed to be one of the most prominent presentation of Aristotle"s : "Poetics". No doubt that the critical issues dealt with in Ibn Sīnā"s presentation of "Poetics", formed the center of discussion in Ḥāzim"s : aš - šifā,.

The article tries to expose the importance of Hazim beeing the connecting link between the Arabic and Greek cultures, and also beeing distinctive from other critics in application of theories in the field of criticism and rhetoric. This article therefore reveals that the German orientalists viewing of imagination and creation in the eyes of Hazim tends to be poor,

الملخص

يتناول هذا البحث موقف المستشرقين الألمان المعاصرين من القضايا النقدية التي عالجها حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) في كتابه منهاج البلغاء وهي :

١ - حازم القرطاجني والأثر اليوناني.
٢ - المحاكاة والتخييل.
٣ - الاختلاق الامكاني والاختلاق الامتناعي.

وقد ركز المستشرقون على قضية حازم القرطاجني ومصادره اليونانية، وبخاصة تأثره المباشر بكتاب الشفاء لابن سينا والذي يعد أحد الشروح المميزة لكتاب فن الشعر لأرسطوطاليس. وقد شكلت القضايا النقدية التي أشارها ابن سينا في شرحه لفن الشعر محور البحث والنقاش عند القرطاجني.

وكشف البحث عن أهمية القرطاجني كحلقة وصل بين الثقافتين العربية واليونانية، كما أنه تميز عن غيره من النقاد في قدرته على الانتقال من التنظير الى التطبيق في مسائل النقد والبلاغة عند العرب. بيد أن المستشرقين قد كانت معاينتهم لموضوع الخيال والابداع عند القرطاجني مبتسرة.

تمهيد :

لقد حظي النقد العربي القديم كصنف أدبي منذ عام ١٩٥٥ باهتمام الجيل الأول من المستشرقين الألمان. فقد التفت المستشرق الألماني جوستاف فون جرونباوم Gustave Von Grunebaum للمرة الأولى الى موضوع النقد العربي القديم وقضاياه الفنية من خلال مقالاته التي صدرت في كتابه عام ١٩٥٥ باللغة الألمانية والموسوم بـ النقد وفن الشعر Kri-tik und Dichtkunst. وقد تناول هذا المستشرق في مقالاته موضوعات نقدية مثل : السرقات الشعرية، والصورة الشعرية، ونظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني. بيد أنه قد مس هذه القضايا مساً خفيفاً، وجاءت معالجته لهذه الموضوعات الهامة بشكل مقتضب. وعلى الرغم من هذه المعالجة المبتسرة للموضوعات النقدية عند جرونباوم غير أنه كان أول من لفت الانتباه لهذا الصنف الأدبي الذي لم يعره المستشرقون اهتماماً من قبل. كما يعد جرونباوم أول من استخدم مصطلح النقد الأدبي Literaur Kritik في كتابات المستشرقين الألمان[١].

وقد تنامى الاهتمام بالنقد العربي القديم وقضاياه عند الجيل الثاني من المستشرقين الألمان. وقد شكل كتاب حازم القرطاجني الموسوم بـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء قاسماً مشتركاً بين معظم المستشرقين. وذلك لأنه يجسد حلقة هامة بين النقد العربي والنقد اليوناني، وبخاصة أن القرطاجني يعد من أكثر النقاد العرب الذين نظروا وعاينوا النظرية النقدية اليونانية من خلال شروحات كتاب فن الشعر Poetik لأرسطو طاليس بشكل جيد ظهر من خلال منهجه والموضوعات التي عالجها في كتابه. في حين جاء فهم النقاد العرب الذي سبقوا القرطاجني لكتاب فن الشعر مبتسرا : وذلك لأنهم تناولوا شروحات الفلاسفة المسلمين لكتاب فن الشعر لأرسطو دون التدقيق والمقارنة بين الشعر العربي وبين الشعر اليوناني. وهذا ما لم يدركه أصلا معظم الفلاسفة الذين شرحوا كتاب أرسطو باستثناء لفتات جيدة في هذا الصدد عند ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ).

وقد كانت الدراسة التي نشرها الأستاذ فولفارت هاينرشس Wolfhart Heinrichs عام ١٩٦٩ والموسومة بـ الشعر العربي وفن الشعر اليوناني. جذور فن الشعر عند حازم القرطاجني في ضوء مفاهيم أرسطو
Arabische Dichtung und Griechishe Poetik. Ḥāzim al - Oarṭāǧanīs Grundlegung der Poetik mit Hilfe Aristotelischer Begriffe

هي الدراسة الأولى التي تناولت كتاب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني. ويتوقع من عنوان هذه الدراسة أنها تناولت كتاب منهاج البلغاء بالدرس والتحليل فحسب، بيد أن صاحب هذه الدراسة قد هدف من دراسته أولا ترجمة المنهج الثالث من كتاب منهاج البلغاء. وقد أثار هذا القسم المترجم عند هاينرشس مجموعة من الموضوعات والقضايا النقدية وبخاصة نظرية الشعر العربي والأثر اليوناني. فضلا عن متابعة رصد تطور المصطلح النقدي عند النقاد العرب القدماء. ولهذا فقد بدا الكتاب مقسوماً الى قسمين أحدهما يشكل ترجمة المنهج الثالث من كتاب القرطاجني، والآخر يشكل دراسة التطور التاريخي للنظرية النقدية عند العرب والأثر اليوناني. ولذلك فقد جاء القسم الثاني في هذا العمل شبه مستقل عن القسم الأول اذا ما قيس ذلك بعنوان الكتاب المخصص لدراسة كتاب منهاج البلغاء.

وأما الكتاب الثاني الذي درس كتاب منهاج البلغاء فهو للأستاذ جريقور شولر Gregor Schoeler والموسوم بـ بعض القضايا الأصلية ونظرية الأدب الأرسطية العربية Einige Grundprobleme der Autochthonen und der Aristotelischen Arabischen Literaturtheorie.

وقد تجاوز الأستاذ شولر الجانب التاريخي لتطور النظرية النقدية عند العرب هو ما فعله هاينرشس من قبل الى تناول قضايا نقدية تشكل محور الدراسات النقدية العربية. اذ تناول في أبواب كتابه موضوعات هي : هدف الشعر عند العرب. وفائدة الشعر وأغراضه، ومفهوم الشعر عند الفلاسفة المسلمين، والطبع والصنعة. وحازم القرطاجني ومفهوم الشعر، ثم الأثر اليوناني في المصطلح النقدي عند حازم. فضلا عن ذلك، فقد ترجم شولر المنهج الثاني من كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء مقتفياً بذلك أثر زميله هاينرشس.

وإلى جانب هذين الكتابين. فقد نشرت مجموعة من المقالات التي تناولت الأثر اليوناني والنقد العربي القديم من خلال شروح الفلاسفة المسلمين لكتاب فن الشعر لأرسطو. فقد نشر الأستاذ كريستوف بورقل Christoph Burgel عام ١٩٧٤ مقالة مطولة بعنوان : أحسن الشعر أكذبه. الجوهر والمعنى للخلاف الأدبي عند العلماء العرب في العصور الوسطى في ضوء الدراسة المقارنة

Die beste Dichtung ist die Lügenreichsts. Wesen und Bedeutung eines Literarischen Streites des arabischen Mittelalters im Lichte Komparatistisher Betrachtung.

وتعد هذه المقالة المطولة ملخصاً لأطروحة الأستاذية التي أعدها بورقل قبل ذلك بسنتين. وضمن هذه المقالة عالج الأستاذ بورقل موقف حازم القرطاجني من قضية الكذب والصدق في الشعر وذلك في ضوء معطيات كتاب فن الشعر وشروحه وبخاصة شرح الفارابي وابن سينا(٢).

ونشر كذلك الأستاذ هاينرشس مقالة عام ١٩٧٨ بعنوان : الارتباط القديم بين الخيال والشعر عند العرب

Die antike Verknüpfung von Phatasie und Dichtung bei den Arabern.

وقد عالج في هذه المقالة مفهوم الخيال والتخييل والمحاكاة بين الفلاسفة المسلمين وكتاب فن الشعر لأرسطو. وتعد هذه المقالة متابعة لما طرحه هاينرشس من قبل في كتابه : الشعر العربي وفن الشعر اليوناني(٣).

وأما المقالة الأخيرة. فقد كانت للأستاذ شولر. إذ نشر هذا المستشرق مقالته عام ١٩٨٣. وتعد هذه المقالة متابعة لما نشره من قبل في كتابه المذكور آنفاً، فقد عالج شولر في مقالته : القياس الشعري Der Poetische Syllogismus موضوع المصادر الفلسفية اليونانية وشروح الفارابي وابن سينا لكتاب فن الشعر، كما تناول مفهوم المحاكاة والتخييل. وبهذا يلاحظ المرء بأن شولر قد اتبع منهج زميله المستشرق هاينرشس الى حد كبير(٤).

وفي ضوء هذه المصادر التي تناولت كتاب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني فإن الدارس يلاحظ بأن الموضوعات الرئيسة التي شكلت محور هذه المصادر قد كانت تتمثل بالموضوعات التالية والتي ستكون موضوع المعالجة في هذا البحث :

١ – حازم القرطاجني والأثر اليوناني.
٢ – المحاكاة والتخييل.
٣ – الاختلاق الامكاني والاختلاق الامتناعي.

حازم القرطاجني والأثر اليوناني

لقد حظي موضوع النقد اليوناني وأثره على النقد العربي القديم بعناية الدارسين الألمان. حيث تمحورت معظم دراسات المستشرقين الألمان حول كتاب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ومدى تأثره بكتاب فن الشعر Poetik لأرسطوطاليس. بيد أن المستشرقين لم

يختلفوا كثيراً حول مصادر حازم بالنسبة لكتابه منهاج البلغاء. فقد كانت دراسة الأستاذ هاينرشس أولى الدراسات الاستشراقية الألمانية التي تناولت حازم القرطاجني ومصادره اليونانية. فقد عالج الأستاذ هاينرشس موضوع حازم القرطاجني ومصادره اليونانية بشكل مسهب. إذ يرى هاينرشس أن حازم القرطاجني هو أول نحوي وبلاغي عربي امتلك ثقافة فلسفية متميزة. فقد استطاع القرطاجني أن يجمع بين النظرية الأدبية العربية وفلسفة كتاب فن الشعر لأرسطو. فضلا عن ذلك. فقد تمكن حازم وبمساعدة المصطلحات اليونانية أن يضع أسساً وقواعد لفن الشعر العربي من خلال معرفته وشمولية تصوره لوظيفة الشعر وغايته(٥).

ولما كان كتاب فن الشعر لأرسطو قد صعب فهمه بالنسبة للمترجمين العرب القدماء. وذلك لاختلاف طبيعة الشعر اليوناني قياساً الى الشعر العربي الذي هو شعر غنائي بينما يعد الشعر اليوناني شعراً دراميا وملحمياً. فقد كان من الطبيعي أن تكون مصادر حازم الفلسفية ليست من كتاب فن الشعر لأرسطو مباشرة؛ وذلك لأن حازماً لا يعرف اليونانية؛ ولذا فقد جاءت مصادره الفلسفية من خلال اطلاعه واستيعابه لشروح كتاب فن الشعر للفلاسفة المسلمين وبخاصة الفارابي (ت ٣٣٩هـ) وابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)(٦). إذ أن الفارابي وابن سينا كانا أوضح شرحاً من الشارحين السابقين أمثال أبي بشر متى بن يونس (ت ٣٢٨هـ) الذين لم يفهموا كتاب فن الشعر، وإنما عملوا على تقريب الشعر اليوناني ومصطلحات النقد اليونانية من الشعر العربي ومصطلحات النقد العربي. كما أنه لا توجد أية اشارة عند حازم القرطاجني للشارحين السابقين قبل الفارابي وابن سينا(٧). ويمكن الاستنتاج بأن كتاب فن الشعر لم يكن مفهوماً على حقيقته عند النقاد العرب القدماء، وأن ما نسب الى قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) من أنه قد تأثر بكتاب فن الشعر لأرسطو، فان هذا التأثر لم يكن أكثر من تأثر أسلوبي في الصياغة المنطقية لكتابه نقد الشعر، وعلى الرغم من ذلك، فإنه يمكن القول بأن قدامة بن جعفر هو المنظّر الأدبي الوحيد الذي امتلك ثقافة منطقية وفلسفية قبل حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ)(٨).

إنّ عجز الشارحين العرب القدماء عن شرح كتاب فن الشعر لأرسطو واضح من خلال عدم قدرتهم على استيعاب وفهم المصطلح النقدي عند اليونان. ذلك المصطلح الذي يأتي من طبيعة شعرهم الذي يقوم على الشعر الملحمي والأسطوري والدرامي، ولهذا لم يحسن ابن

رشد (ت ٥٩٥هـ) وغيره من الشارحين ترجمة مصطلحي الملهاة Komödie والمأساة Tragodie إلا بما يقابلهما في الشعر العربي الذي هو شعر غنائي حيث ترجموا هذين المصطلحين بالهجاء والمديح. وبهذا فإن الشارحين العرب القدماء لم يفعلوا حقاً سوى تقريب الشعر اليوناني من الشعر العربي(٩).

وأما المقولة الأخرى للأستاذ هاينرشس بأن العرب ليس لديهم الشجاعة الكافية للاعتراف بأهمية التراث اليوناني وبإفادتهم منه، في وقت يعترف النقد الأوروبي المعاصر بمدى افادته واعتماده على النقد اليوناني، فقد جاءت هذه المقولة في ضوء الرأي التالي لابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) :

«فإن قلت : إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه. قلت لك في الجواب : هذا شيء لم يكن. ولا علم أبو نواس شيئا منه. ولا مسلم بن الوليد، ولا أبو تمام. . . ولا غيرهم. وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة، كعبد الحميد، وابن العميد، والصابي. وغيرهم». ثم قال : «فإن ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان. قلت لك في الجواب : هذا باطل بي أنا، فإني لم أعلم شيئا مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته»(١٠). وفي ضوء هذا الاستنتاج الذي توصل اليه الأستاذ هاينرشس. فإن الدارس هنا لا يمكن أن يقبل بسهولة هذا الزعم الذي جاء استناداً إلى نص ابن الأثير. فالعرب كانت لديهم الشجاعة الكاملة في حب المعرفة والسعي إليها بشتى السبل. فقد تجشموا عناء ترجمة كتاب فن الشعر الذي ظل الى فترة قريبة من عصرنا الحاضر صعباً حتى على الأوروبيين أنفسهم وهم أبناء تلك الثقافة اليونانية. ففي رسالة بعث بها شاعر ألمانيا الكبير جوته Goethe الى شلر Schiller وهو كاتب ألماني مشهور في ٢٨/٤/١٧٩٧ يصف فيها شعوره إثر قراءته لكتاب فن الشعر لأرسطو للمرة الثانية حيث كان صعب الفهم بالنسبة للأوروبيين آنذاك. فيقول : «ولهذا فهمت الآن، والآن فحسب، لماذا ارهق (كتاب فن الشعر) شراحه الفرنسيين وشعراء فرنسا ونقادها. وبث فيهم دائماً الخوف الذي تثيره العصا في نفوس الأولاد. . . ومهما يكن من شيء. فأنا راض كل الرضا لأني لم أقرأه قبل هذه الأيام: وإلا لكنت قد فقدت كل اللذة وكل الفائدة اللتين استشعرتهما اليوم»(١١).

إن رسالة جوته تبين مدى صعوبة كتاب أرسطو، وهو ما تحمل العرب عناء ترجمته في زمن مبكر جداً. فضلا عن ذلك فإن كلام ابن الأثير قد جاء من خلال مناقشة ابن الأثير

نفسه لأحد أصدقائه حول الثقافة اليونانية ومسائل النقد والبلاغة العربية. وذلك في ضوء قراءة ابن الأثير لكتاب الشفاء لابن سينا. مما جعل ابن الأثير يستنتج بأن كلام ابن سينا في كتاب الشفاء ما هو الا لغو لا يستفاد منه بالنسبة للعرب. يقول ابن الأثير : «ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا، وانساق الكلام الى شيء ذكر لأبي علي ابن سينا في الخطابة والشعر. وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يسمى «اللاغوذيا» وقام فأحضر كتاب «الشفاء» لأبي علي ووقفني على ما ذكره، فلما وقفت عليه استجهلته، فانه طول فيه وعرض، كأنه يخاطب بعض اليونانيين، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً»(١٢). ويرى الدكتور إحسان عباس بأن ابن الأثير قد ذهب الى هذا الرأي، لأنه لم يدرك أن ابن سينا كان يعرض في كتابه الشفاء كتاباً يونانياً أو كتابين يونانيين. كما أن ابن الأثير لم يدرك أن ابن سينا كذلك لا ينشيء كلاماً حول نظرية الشعر من عند نفسه، بل كان يعرض كتاباً يونانياً يتحدث عن الشعر اليوناني الذي هو شعر يقوم على الملحمة والأسطورة والدراما وهو ما لم يكن معروفاً عند العرب، لأن الشعر العربي هو شعر غنائي، وهذا ما دفع ابن الأثير للقول بأن ما جاء في كتاب الشفاء هو لغو لا يستفيد منه صاحب الكلام العربي(١٣)، وبالتالي فإن المرء هنا يدرك بوضوح أن ابن الأثير لم يكن متجاهلا للثقافة اليونانية بل جاهلا بكتاب الشفاء وهو شرح من شروح كتاب فن الشعر لأرسطو. ولهذا السبب دافع عن أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام بأنهم لم يتأثروا بما جاء في كتاب الشفاء، وهذا دليل واضح على عدم معرفة ابن الأثير بأن لليونان شعراً يختلف عن الشعر عند العرب من حيث الصنف الأدبي والوزن الشعري، فالشعر اليوناني يقوم على الملحمة، كما أنه يعتمد على الأسطورة والتي تتناول أشياء بعيدة عن الواقع (١٤). وهو ما يختلف تماماً عن الشعر العربي. ولهذا فإن ابن الأثير كان ضحية الجهل بالشعر اليوناني وبمضمون كتاب الشفاء الذي لم يكن من انشاء ابن سينا كما كان يعتقد ابن الأثير، وأن ما جاء عند صاحب المثل السائر لم يكن تجاهلا للثقافة اليونانية كما صور ذلك الأستاذ هاينرشس آنفا.

وقد أثنى مستشرق آخر هو الأستاذ بورقل Bürgel على جهود حازم القرطاجني في معالجة مسائل النقد والبلاغة العربية والافادة الى حد ما من التراث النقدي اليوناني من خلال شرح كتاب فن الشعر لابن سينا والفارابي. بيد أن بورقل يميل الى أن تأثر حازم كان من خلال كتاب الشفاء لابن سينا. ولذا فان الفارق بين عمل ابن سينا وعمل حازم هو أن

حازم القرطاجني قد حاول ايجاد طريق خاص به عن طريق محاولته التخلص من موضوع التنظير النقدي الى موضوع التطبيق في الشعر والبلاغة. وأنّ تجاوز القرطاجني سابقيه بهذه الميزة جعلته أكثر وضوحاً في عمله من بين النقاد العرب القدماء. وهذا ما جعل حازم القرطاجني حلقة وصل بين النقد اليوناني والنقد العربي. مما حدا بالدارسين الألمان الى جعله دون غيره من النقاد العرب محور اهتمامهم وعنايتهم(١٥).

إذن، لقد كان كتاب الشفاء لابن سينا معتمد حازم القرطاجني في احالاته ومعالجته لمسائل الشعر والبلاغة(١٦). كما أنه حاول أن يستفيد من شرح الفارابي لكتاب فن الشعر، وقد أشار إليه مرتين في كتابه. وأما الشرح الوسيط لابن رشد، وهو قريب من عصر حازم، فقد أغفله تماماً في كتابه، وهذه ظاهرة مألوفة عند المؤلفين والدارسين لاظهار تفردهم عن غيرهم(١٧). ويبقى أن يقول الدارس هنا بأن القرطاجني هو أول من أدخل نظريات أرسطو من خلال قراءته لكتاب الشفاء لابن سينا. وحاول تطبيقها في كتب البلاغة العربية(١٨). ولهذا فإن قيمة حازم العلمية تكمن – كما يشير الدكتور احسان عباس – في أنه يمثل المزج بين التيار اليوناني والتيار العربي في النقد بعد أن ظلا لمدة طويلة منفصلين، كما أنه حاول أن يرسم لنفسه منهجاً نقدياً واضح المعالم(١٩).

٢ – المحاكاة والتخييل

(١)

لقد شغل حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء بمعالجة المصطلح النقدي اليوناني ومحاولة توظيفه في النقد والبلاغة العربية. فقد اقتبس حازم مصطلح المحاكاة والتخييل من كتاب الشفاء لابن سينا (ت ٤٢٨هـ) الذي هو في الأصل شرح لكتاب فن الشعر لأرسطو(٢٠).

إن القرطاجني قد أخطأ في فهم مصطلح المحاكاة الأرسطية(٢١). بيد أنه قد وظف المحاكاة في كتابه بشكل مختلف ومضاد لاستعمالها عند ابن سينا والفارابي، وذلك على الرغم من الاضاءة التي قدمها له ابن سينا حول الفرق بين الشعر العربي والشعر اليوناني الذي يقوم على أساس الأسطورة والدراما والملحمة بينما الشعر العربي هو شعر غنائي(٢٢). يقول ابن سيناء «والشعر اليوناني انما كان يقصد فيه في أكثر الأمر محاكاة الأفعال

والأحوال لا غير، وأما الذوات فلم يكونوا يشتغلون بمحاكاتها أصلا كاشتغال العرب»(٢٣).

إن ادراك ابن سينا للفرق بين طبيعة الشعر العربي والشعر اليوناني لم يسعفه في محاولة تفسير تلك العلاقة بين الشعر العربي واليوناني، حيث إنّه نقل معنى المحاكاة الى عملية الخلق وأثرها في النفس وهو ما يتشابه به كلا الفنين الشعر العربي والشعر اليوناني. وذلك على الرغم من الاختلاف الجوهري بين هذين الفنين(٢٤). بينما يجد المرء أن القرطاجني قد نقل معنى مصطلح المحاكاة الى مصطلح التشبيه محاولة منه للتقريب بين الشعر العربي والشعر اليوناني في هذا الصدد. وقد عد المحاكاة أساس الحكم على الشعر الجيد من الشعر الرديء. يقول : «فأفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيئته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته»(٢٥).

وعلى الرغم من موقف المستشرقين هاينرشس وشولر من أن حازما قد أخطأ في فهم المحاكاة الأرسطية، وأنه قد اقتبسها من كتاب الشفاء لابن سينا مباشرة. فانه يمكن القول إن حازما قد حاول فهم تلك المحاكاة وتوسع في شرحها أكثر مما فعل ابن سينا من قبل، بيد أن حازماً قد حصر هذه المحاكاة في التشبيه(٢٦). لأنه يعتقد أن المحاكاة هي ضرب من التشبيه(٢٧). غير أن القرطاجني قد توسع في ألوان المحاكاة أو التشبيه مما يعكس رغبته في شرح هذا المصطلح الجديد في عالم النقد العربي وادخاله اليه(٢٨). كما أن حازم القرطاجني قد تمكن من الانتقال من الجانب التنظيري الى الجانب التطبيقي في النقد والبلاغة. ولهذا فقد قدم أمثلة من الشعر في إطار شرحه للمحاكاة. ويقول : «ومن محاكاة الشيء بغيره على غير ما ألف فيه قول أبي عمر بن دراج :

وسلافةُ الأعنابِ يَشْعَلُ نارُها تُهدي اليَّ بيانعِ العُنَّابِ

فالمألوف أن يذوي النبات الناعم بمجاورة النار لا أن يونع، فأغرب في هذه المحاكاة كما نرى»(٢٩).

ويرى هاينرشس بأن فكرة المحاكاة وأثرها في تحريك النفس نحو فعل ايجابي (تحسين) وفعل سلبي (تقبيح) تعد فكرة جديدة أخذها حازم أصلا من الفلاسفة المسلمين الذين شرحوا فن الشعر لأرسطو وبخاصة ابن سينا(٣٠). ولهذا فان المحاكاة في القرطاجني تقوم بدور جمالي في الشعر، ولذا يكون القرطاجني قد أدخل موضوع المحاكاة الى الاطار

الجمالي للنقد. وهذه من الاضافات التي أدرك أهميتها في تناوله للمحاكاة. وبخاصة أنه قد عالج المحاكاة من خلال الوزن، واللفظ، والنظم، والأسلوب وهي عناصر أساسية في التعبير الشعري(٣١).

وفي ضوء ما تقدم، فانه يمكن للدارس القول، بأن حازم القرطاجني قد أعطى مصطلح المحاكاة مفهوماً جديداً قياساً إلى مفهومه الأرسطي، كما أنه قد توسع في الأمثلة التطبيقية التي شرحت مفهوم المحاكاة عنده، بينما أرسطو فقد قدم صورة واحدة للمحاكاة هي المأساة اليونانية. وعلى أية حال، لقد انتفع حازم بما جاء عند ابن سينا في شرحه لكتاب فن الشعر(٣٢).

(٢)

لقد أسهب الأستاذ هاينرشس في معالجته لموضوع الخيال والتخييل عند العرب في مقالته الموسومة بـ الارتباط القديم بين الخيال والشعر عند العرب.

Die antike Verknüpfung von Phantasie und Dichtung bei den Arabern.

ويرى هاينرشس أن مفهوم التخييل الشعري الذي يعود لأصول أرسطية يونانية قد تمت حمايته وتطويره من خلال التصورات والمعالجات العربية عند الفلاسفة المسلمين(٣٣).
فالتخييل كمصطلح نقدي هو ذلك الأثر الذي يتركه العمل الشعري في نفس المتلقي وبمعنى آخر هو عملية التلقي في العملية الشعرية(٣٤). ولعل الدارس يلمح بوضوح أن هذا المفهوم لمصطلح التخييل لا يختلف عن مفهوم المحاكاة عند حازم القرطاجني(٣٥). إذ أن حازم القرطاجني يخلط في كثير من المواضع في كتابه بين المحاكاة والتخييل. يقول : «وتنقسم التخاييل والمحاكيات بحسب ما يقصد بها إلى : محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح. ومحاكاة مطابقة لا يقصد بها الا ضرب من رياضة الخواطر والملح في بعض المواضع التي يعتمد فيها وصف الشيء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليه»(٣٦). ويقول في مكان آخر في كتابه : «فالشعر إذن قد تكون مقدماته يقينية ومشهورة مظنونة. ويفارق البرهان والجدل والخطابة بما فيه من التخييل والمحاكاة»(٣٧).

بيد أن تلك المعالجة للأستاذ هاينرشس تركز على أن مصدر حازم في قضية التخييل هو كتاب الشفاء لابن سينا، وأن هذا المصطلح هو تماما يطابق مصطلح المحاكاة(٣٨). وإن هذا

الخلط قد جاء من خلال مطالعة القرطاجني له عند الفارابي وابن سينا. فالمحاكاة والتخييل عند الفارابي متشابهة المعنى وتهدف الى تحديد غاية الشعر[٣٩]. بيد أن الفارابي وهو مصدر ثان للقرطاجني قد نقل كتاب فن الشعر بشكل مبتسر إلى العربية، بل لقد بدا كتاب فن الشعر بالنسبة للفارابي عملا غريباً[٤٠].

الاختلاق الامكاني والاختلاق الامتناعي

لقد تناول هاينرشس في كتابه الشعر العربي وفن الشعر اليوناني مسألة الاختلاق الامكاني والامتناعي مقروناً بمسألة الخيال والإبداع الشعري عند العرب. فقد عالج هاينرشس موضوع النسيب في القصيدة العربية من خلال موقف حازم القرطاجني منه. إذ عد حازم النسيب في القصيدة بأنه نوع من الإختلاق الإمكاني وهو الذي لا يعرف صدقه من كذبه. فعندما يقف الشاعر في مقطع النسيب عند المحبوبة وما يتركه فراقها من ألم وشدة وجد بالنسبة له، فإن هذه الحالة الشعورية لا يمكن الحكم عليها من حيث صدق المشاعر أو كذبها[٤١]. ويعلق هاينرشس على موقف حازم هذا من النسيب. بأن هذا المقطع من القصيدة هو تقليد إجباري لا ابداع إختياري[٤٢].

ويبدو للمرء هنا بأن المستشرق الألماني هاينرشس قد أراد من موقفه هذا تعزيز فكرته الأساسية التي عالجها في كتابه وهي أن الخيال أمر معدوم وجوده عند العرب. وأن الشعر العربي قائم على الذاكرة وتركيب الكلمات لغوياً ليس غير[٤٣]. كما يبدو بشكل جلي أن هاينرشس قد حكم على الشعر العربي بالتفكك والجزئية دون أن يكلف نفسه بالنظر فنياً في نص شعري واحد. بل لقد ساق أحكامه بناء على آراء النقاد العرب القدماء الذين لم يحللوا نصاً شعرياً واحداً بشكل متكامل، وانما اعتمدوا على اطلاق الأحكام الذوقية تارة والجزئية تارة أخرى. إضافة الى ذلك فان حازم القرطاجني لم يكن يقصد من تعليقه على مقطع النسيب نفي الابداع عن الشعر العربي. كما لم يكن معنياً بموضوع الصدق والكذب في الشعر، لأن الصدق والكذب يحركان المتلقي الى عمل فعل ما دون فرق بينهما. يقول : «لأن الاعتبار في الشعر إنما هو التخييل في أي مادة اتفق، لا يشترط في ذلك صدق ولا كذب»[٤٤]. ولهذا السبب يلاحظ المتتبع لآراء هاينرشس في هذا الصدد بأنه يربط الابداع والخيال فقط بالقصص الأسطوري أو الخرافي، ولذلك فقد أسهب في دراسة أثر التراث الفارسي في الأدب العربي وبخاصة في التراث النثري عند الكتّاب العرب القدماء من أمثال ابن

المقفع وما جاء في كتب الأخبار للمدائنــي (ت ٢٤٤هــ) والزبير بن بكار (ت ٢٥٦هــ) وسـهل بن هارون الكاتب العربي المعروف. وأن هؤلاء قد تأثروا بالثقافة والتقاليد الفارسية(٤٥).

وقد انطلق هاينــرشس في تعزيز فكرته من التراث غير العربي مـرة أخرى الى القول بأن المناخ الـديني الاسلامي قد ساهم في عـدم وجود الفن القصصي Erzählungen عند العرب، وبالتالي عدم وجود الخيال Fiktion في تراثهم الأدبي سواء أكان تراثاً شعرياً أم نثرياً(٤٦).

وفي ضوء ما جاء من آراء للأستاذ هاينرشس، فإن المرء لا يجد مناصاً من القول بأن هذا المستشرق قد عـالج موضوع الاختــلاق الامكاني والامتنــاعي بشكل مقتضب وهامشي ازاء محاولته الاتكاء على بعض النصوص عند حازم لتعزيز فكـرة أساسية في كتابه الآنف الذكر بأن العرب لا يعرفون الخيال ولذلك فإن فنهم الشعـري مثلا لا يعدو كونه عبارة عن جمل وتراكيب لغـوية فقط، كما أنــه عزا السبب في ذلك الى الــدين الذي يهدف الى معـالجة الواقع بعيـداً عن الأسـاطير والخرافــات. ولهذا فإن هــاينرشس قـد اعتبر أن مقـولة حــازم من أن الاختــلاق الامتناعي المبني أســاساً على الخرافــات والأســاطير وقصص الحيوان بأنــه غير معروف لدى العرب هي شاهد على فقدان الخيال في أدبهم. وكأن هاينرشس لا يرى الخيال إلا في القصص والأسـاطير فحسب، بيد أنه لو حاول دراســة نص شعري جاهلي مثلا لوجد أن الوحدة الشعــورية تربط النص وتــوحده في لوحة واحدة، غير أن هــذا المستشرق قد اتكأ على نصوص نظرية من النقــد العربي القديم لبناء أحكامه، علماً أن ذلك النقـد قد قام أصلا على تنــاول الشعــر الجاهلي أكثــر من غيره من خــلال الأحكام الـذوقيـة والجزئيـة، وذلك لأغراض تتعلق بالشاهد النحوي واللغوي أو بالذوق الاجتماعي.

إضافة الى ما سبق فإن القرطاجني كــان واضحاً في رؤيته لمسألة الصدق والكذب، وذلك بأن الشيء المهم في الشعر هــو التخييل، أي ما يحدثــه الشعر في المتلقي، ذلك الشعــر الذي لا يمكن له التأثير في نفــوس الناس وتحريك مشاعرهــم الا إذا كان شعراً قويــاً من حيث اللغة وشرارة الابــداع وقــوة الشاعــريــة. ولهذا فإن حــازم القرطــاجني لم يفصل بين الاختــلاق الامكاني والامتناعي. اذ أنه فقط نفى وجــود الشعر القصصي والأسطوري عند العرب، ولم يقلل من شأن الشعر العربي. وان مقطع النسيب قد ساقه حازم كمثال على عدم القدرة على تحديد الكذب أو الصدق فيه دون أن يتطرق الى مقــدار الابداع أو عدمه فيه، إذ أن الاختلاف الامكاني هو ادعاء ليس له حقيقة. وان تسميته بــالامكاني لأنه ممكن الوقوع فقط، ولذلك لا

يرى المرء أية تفضيل عنده لأي من المصطلحين على الآخر[٤٧].

ولعل الميزة النقدية الجديدة عند حازم في هذا الاطار أنـه قد شق لنفسه طريقاً خاصاً به وذلك بعدم تفضيله الصدق على الكذب أو الكذب على الصدق، بل لقد جعل مقياس المفاضلة هو التخييل الشعري. وبالتالي فقد أدرك حازم بشكل واضح أن التخييل هو أساس الشعر، وبذلك يكون قد أشرك الطرف الثالث في العمليـة الابداعية وهو المتلقي وجعله الركن الهام في صناعة الشعر(٤٨).

الهوامش

(١) انظر المعالجة المسهبة لهذا الموضوع عند : محمود درابسة : قضية الصدق والكذب في الشعر عند النقاد العرب القدماء في دراسات المستشرقين الألمان المعاصرين، مجلة أبحاث اليرموك، مج ١٠، ع ١. ١٩٩٢، ص ٩-.

انظر

2 - Bürgel, Christoph : Die beste Dichtung ist die Lügenreichste. Wesen und Bedeutung eines Literarischen streits des arabischen Mittelalters im Lichte Komparatistisher Betrachtung. In : Oriens, 23 - 24 (1974), 77 - 87.

انظر

3 - Heinrichs, Wolfhart : Die Antike Verknüpfung von phantasie und Dichtung bei den Arabern. In : ZDMG 128 (1978). 252-.

4 - Schoeler, Gregor : Der poetische Syllogismus. Ein Beitrag zum Verstandnis der "Logischen" Poetik der Araber. In : ZDMG 133, 1 (1983), 45-.

5 - Heinrichs, Wolfhart : Arabische Dichtung und griechische Poetik. Wiesbaden, 1969, 104.

6 - Ibid, 46.

7 - Ibid, 123.

8 - Ibid, 108.

9 - Ibid, 109.

١٠- ابن الأثير، ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر. ط ٢، القاهرة، ١٩٧٣، ج ٢ / ٤-٥.
انظر Heinrichs : Dichtung, 17.

١١- نقلا عن عبد الرحمن بدوي في : أرسطو : فن الشعر. مع الترجمة العربية القديمة

وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد.ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٢ (المقدمة).

١٢– ابن الأثير : المثل السائر. ج ٢ / ٥–٦. انظر المعالجة القيمة لهذه المسألة عند احسان عباس : ملامح يونانية في الأدب العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧، ص ٣٥–.

١٣– احسان عباس : ملامح يونانية في الأدب العربي، ص ٣٥.

١٤– انظر المرجع نفسه، ص ٣٧.

15 - Burgel : Die beste Dichtung, 77 - 79.

١٦– انظر. احسان عباس : ملامح يونانية في الأدب العربي، ص ٣٧.
عياد، شكري : كتاب أرسطو طاليس في الشعر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤٤–٢٤٥.
القرطاجني. حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦، ص ١١٨ (مقدمة المحقق).

١٧– انظر. بدوي، عبد الرحمن : حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، القاهرة ١٩٦١، ص ٣.

١٨– المرجع نفسه، ص ٣.

١٩– عباس، احسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، ط ٢. بيروت ١٩٧٨، ص ٥٧٣.

20 - Heinrichs : Dichtung, 111.

21 - Schoeler, Gregor : Einige Grundprobleme der Autochthonen und der Aristotelischen arabischen Literaturtheorie. Wiesbaden, 1975, 57.

22 - Heinrichs : Dichtung, 166.

٢٣- ابن سينـا، أبـو علي الحسين بن عبـد الله : الشفـاء (ضمن كتـاب فن الشعـر لأرسطـو)، ص ١٦٩-١٧١.

٢٤- احسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٤١٤.

٢٥- القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٧١.
انظر : عبد الرحمن بدوي : حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، ص ٥.

٢٦- احسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٥٧٣.

٢٧- انظر. قصبجي. عصـام : نظريـة المحاكاة في النقـد العربي القـديم. دار القلم العربي للطباعة والنشر، حلب. ١٩٨٠، ص ١٧٩، ٢٠٩.

٢٨- انظر. القرطاجني : منهاج البلغاء، ص ٩١.

٢٩- المصدر نفسه، ص ٩٥.

30 - Heinrichs : Dichtung, 168.

31 - Ibid, 168.

٣٢ - شكري عياد : كتاب أرسطو طاليس في الشعر، ص ٢٦٢.

33 - Heinrichs : Phantasie undDichtung, 263.

٣٤- الروبي. الفت، نظريـة الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الهيئة المصريـة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٢٣.

35 - Heinrichs : Phantasie und Dichtung, 179.

٣٦ - القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٩٢.

٣٧- المصدر نفسه، ص ٧١.

38 - Heinrichs : Phantasie und Dichtung, 254.

39 - Ibid, 254.

40 - Ibid, 256.

٤١ – القرطاجني : منهاج البلغاء، ص ٧٦.

42 - Heinrichs : Dichtung, 45.

43 - Ibid, 20.

٤٤ – القرطاجني : منهاج البلغاء، ص ٨١.
انظر. قصبجي : نظرية المحاكاة، ص ٢٠٥-٢٠٦.

45 - Heinrichs : Dichtung, 40-41.

46 - Ibid, 44.

٤٧ – انظر المعالجة القيمة والمسهبة في : عصفور، جابر : مفهوم الشعر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٨، ص ٣١٣-٣١٤.

48 - Bürgel : Die beste Dichtung, 78.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية :

١ – ابن الأثير، ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢. القاهرة، ١٩٧٣م.

٢ – أرسطو طاليس. فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣م.

٣ – بدوي، عبد الرحمن : حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، القاهرة ١٩٦١م.

٤ – درابسة، محمود : قضية الصدق والكذب في الشعر عند النقاد العرب القدماء في دراسات المستشرقين الألمان المعاصرين. مجلة أبحاث اليرموك / مج ١٠. ع ١، ١٩٩٢م (ص ٩–٣٨).

٥ – الروبي، ألفت : نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

٦ – ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله : الشفاء (ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو)، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣م.

٧ – عباس، احسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب. نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. دار الثقافة. ط ٢، بيروت ١٩٧٨م.

٨ – عباس، احسان : ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧م.

٩ – عصفور، جابر : مفهوم الشعر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٠– عياد، شكري : كتاب أرسطو طاليس في الشعر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.

١١- القرطاجني، حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦م.

١٢- قصبجي، عصام : نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم، دار القلم العربي للطباعة والنشر، حلب ١٩٨٠م.

المراجع الأجنبية :

1 - Bürgel, Christoph : Die beste Dichtung ist die Lügenreichste. Wesen und Bedeutung eines Literarischen Streits des arabischen Mittelalters im Lichte Komparatistisher Betrachtung. In : Oriens, 23-24 (1974).

(7 - 102).

2 - Schoeler, Gregor : Einige Grundprobleme der Autochthonen und der aristotelishcen arabischen Literaturtheorie. Wiesbaden 1975.

3 - Schoeler : Der Poetische Syllogismus. Ein Beitrag zum Verstandnis der "Logischen" Poetik der Araber. In : ZDMG 133 ,1 (1983). (43-92).

4 - Heinrichs, Wolfhart : Die Antike Verknüpfung von Phantasie und Dichtung bei den Arabern, In : ZDMG 128 (1978), (252-298).

5 - Heinrichs : Arabische Dichtung und griechische Poetik. Wiesbaden, 1969.